علاقة اللغة العربية بالعلوم الإسلامية

د. خليل الرحمن *

فقد أرسل الله رسوله بالهدى، ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأنزل عليه ﴿قرآنا عربيا غير ذى عوج﴾ (١) ففتح به قلوبا غلفًا، وأعينا عميًا وآذانا صمًا ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا الإلباب﴾ (٢)

فهو مادة الإسلام الأولى، ومنبعه الأصيل، (لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا انقضى عجائبه)(٣) ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ (٤) فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وجاء بأساليبه البيانية ونظمه البديع، وبلاغته العظيمة، حيث أعجز أقحاح العرب عن محاكاته، أو مضاهاته، فكان حقًا على من أراد تفهم معانيه، وإدراك مراميه، أن يكون على جانب كبير من التمكن من اللغة العربية، وإلّا لا يقدر على شئ من ذلك (٥) ففاقد الشيء لا يعطيه.

ومعلوم قول شيخ الإسلام ابن تيمية: والعلم، إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف، لا يعلم أنه بهرج ولا منقود،(٦) والقرآن الكريم نقل مصدق عن معصوم، ودليل لقول الحق معلوم، ولكن كيف يفهم هذا؟ وبأي لسان يعلم؟ إنه اللسان العربي، واللغة التي وسعته، وقد استنطقها حافظ إبراهيم قائلة:

وسعت كتاب الله لفظًا وغايةً وما ضقت عن آي و عظات

---

* رئيس قسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد.

فما دامت اللغة العربية قد وسعت كتاب الله، بأعلى درجات الفصاحة، والبلاغة، حتى أعجز أهل اللسان، فيثبت ضرورة ألا يفهمه إلا من يعرف العربية ومعرفة تمكنه من فهم دقائق معانيه (٧) وما دام القرآن الكريم هو مادة الإسلام الأولى، ومعينه الذي لا ينضب، نعلم ضرورة أهمية هذه اللغة في علوم الإسلام، حتى لا نخرج عن الخط الذي رسمه القرآن، والغاية آلتي يهدف إليها، وبيان ذلك من خلال النقاط التالية:

أولا: التلازم بين اللغة العربية والقرآن الكريم

والتلازم هنا يتضح من خلال ثلاثة جوانب:

أ. جانب القرآنية ب. جانب الفهم لمعاني القرآن الكريم

ج. جانب عالمية دعوة القرآن.

وبياناً لهذا التلازم، وتنسيقا للبحث فيه، أرى أن نفصل هذه الجوانب فيما يلي:

أ. جانب القرآنية:

أثناء تلاوتنا لكتاب الله عزوجل، نجد آيات كثيرة تصف القرآن بأنه عربي، وأنه تعالىٰ أنزله بلسان عربي مبين، إظهاراً للغة القرآن الكريم، وتأكيداً على التلازم التام بينه وبين اللغة العربية، منها:

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (يوسف :٢)

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربيا﴾ (الرعد: ٣٧)

﴿لسان الذين يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾ (النحل: ١٠٣)

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ (طه: ١٣)

﴿وإنه لتنزيل ربّ العالمين نز ل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين

بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥)

﴿قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلكم تعقلون﴾ (فصلت: ٣)

﴿قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلكم تعقلون﴾ (الزمر: ٢٨)

فهو قرآن، وهو عربي، لا انفكاك بين قرآنيته وعربيته، إذ لوانفكت عربيته بالترجمة لم يعد قرآنا، كم لو انفكت قرآنيته وعربيته، إذ لو انفكت عربيته بالترجمة لم يعد قرآنا، كما لو انفكت قرآنية بالتفسير العربي لا يسمى قرآناً أيضاً. وما أروع تعبير الدكتور مازن المبارك في ذلك حيث يقول: هل عرف العالم إسلامًا بلا قرآن؟ وهل عرف العالم قرآنًا بغير العربية كتاب مقدس بلغة بعينها كارتباط القرآن باللغة العربية. أمر لم نعرفه لغير هذا الدين، ولغير تلك اللغة، وإذا كان غير القرآن من الكتب المقدسة. كالإنجيل مثلاً. قد ترجم إلى لغات كثيرة، وبقى على ما هو عليه من كونه كتاباً تعبديًا مقدسًا، فإن القرآن بلفظه ونصه (٨) وهو معنى قول البازي: في ذلك أن القرآن العربي كما أنه تطلب قراءته لمعناه، كذلك تطلب قراءته لأجل لفظه(٩) ويضيف الدكتور مازن المبارك ، وإذا كانت لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة الكتاب المقدس، فإن الحكم الشرعي في الإسلام، أنه لا صلاة بغير اللفظ العربي للقرآن، ثم خلص إلى القول بأن الارتباط بين العربية والقرآن أمر واقع وفرض مقرر.(١٠)

ب. جانب الفهم لمعاني القرآن الكريم

المعنى الحقيقى للمفهوم الإسلامي لا يتحقق إلا على ضوء ما قرره علماء الأمة في الأصول والتفسير وغيرها، من أن المفسر والمجتهد لا بد أن يكون على علم ومعرفة بلغة العرب، إذ لا يفهم القرآن بغير تلك اللغة، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا يتم الفهم للقرآن إلا بالتصور الكامل لمعانيه باللسان الذي نزل فيه.

لذا نلاحظ أن علماءنا يركزون على هذا الجانب حتى لا يبعد الإنسان عن المعنى الحقيقي للمفهوم الإسلامي، أو المصطلح القرآني. فهذا الزركشي يقول : إنما يفهم بعض معانيه، ويطلع على أسراره و مبانيه من قوي نظره، واتسع مجاله في الفكر وتدبره، وامتد باعه، ورقت طباعه، وامتد في فنون الأدب، وأحاط لغة العرب (١١) وأخرج أبو عبيد عن يحي بن عتيق قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم قراءته بها، قال: حسن يا ابن أخي فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية، فيعي بوجهها،(يعجز عن فهم المراد منها) فيهلك فيها. (١٢)

وقال مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عارفًا بلغات العرب. (١٣)

وروى البيهقى في الشعب عن مالك رضي الله عنه أنه قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب، يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالًا. (١٤) وقمة الصراحة في هذا الأمر نجدها عند الشاطبي، حيث يقول: من أراد تفهم القرآن فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة. (١٥) وقد اتضح ذلك على لسان محمد عبده حيث قال: فهم كتاب الله تعالىٰ أتى بمعرفة ذوق اللغة، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها. (١٦)

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل نجد شيخ الإسلام ابن تيميه يرتفع باللغة العربية فيجعلها شعار الإسلام، ويقرر كراهية اعتياد الخطاب بغيرها، كونه يبعد عن ممارسة اللغة، مما يترتب عليه ضعف الفهم لكلام الله، فيقول: وأما اعتياد الخطاب بغير العربية. التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن. حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء أو لأهل الفقه،

فلا ريب أن هذا مكروه، (١٧) ويضيف: وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفَتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم، إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.(١٨) يلاحظ أن ابن تيميه أعطى حكمين في عبارتيه السابقتين خلاصتهما أن تعلم اللغة العربية فرض واجب لفهم الكتاب والسنة..... ومن تعلمها يكره له اعتياد الخطاب بغيرها.

ج. جانب عالمية دعوة القرآن

عرفنا فيما سبق كيف كان التركيز على التلازم بين عربية القرآن، وقرآنيته مما تمخض عنه تكرار الإشادة بهذا اللسان والارتفاع به، حتى اعتبره ابن تيميه شعار الإسلام، ومع هذا نجده فى الجانب الآخر يصرح بعالمية دعوته، رفضًا للتمييز العنصري.

قال تعالىٰ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للنّاس بشيراً ونذيراً﴾ (١٩) وقال أيضا: (جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم). (٢٠) مما يدعو للتساؤل: هل هناك تعارض بين هذين الجانبين؟ وكيف يمكن التوفيق بينهما؟

ما من ريب أن تنزيل القرآن باللسان العربي كان أوحى إلى العرب بكثير من الاعتزاز والفخر، كما أوحى إلى غيرهم بكثير من التوقير والتكريم، لكل ما هو عربي، لساناً وبيانًا، وحسبًا ومحتدًا، وموقعًا ومولدًا، ولا سيما حين يقرن القرآن اللسان العربي بصفة البيان، أو يقول: (غير ذي عوج)(٢١) ايماءً إلى صفاء هذا اللسان وعالميته، (٢٢) وعالمية القرآن دعامة الوحدة بين العروبة والإسلام.(٢٣)

هذا وإن استهلال بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، يشير إلى أمرين، هامين: أحدهما: بيان موطن الإعجاز في القرآن الكريم، إذ يظهر فيه جانب

التحدى لأقحاح العرب، وفرسان البلاغة والفصاحة، للإتيان بمثله، وعجزهم الواضح دون ذلك. والثاني: بيان أن هذا القرآن الذي هو عالمي الدعوة، لا يسعه إلا هذه الحروف، التي يتكون منها الكلام العربي، مما يعنى أن اللغة العربية لغة عالمية، غير مقتصرة على الناطقين بها، تبعًا لعالمية دعوة القرآن.

كما أنها ضرورية لدراسة لغات، وثقافات عالمية مختلفه، كالإسبانية، والأردية، والماليزية، والإندونيسية، والتركية، والفارسية وغيرها، إذ دخلت كلمات عربية كثيرة في لغات عديدة إسلامية وغير إسلامية.(٢٤)

إضافة إلى ما ذكرناه آنفاً من كلام ابن تيميه، من وجوب تعلم اللغة العربية بالنسبة للمسلمين جميعاً، واستنادًا إلى قوله تعالىٰ: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبَّروا آياته﴾(٢٥) والذي يتضمن أمراً بتعلم اللغة العربية، لأن التدبر هو الفهم، ولا يكون إلا بمعرفة العربية، وذلك يتطلب بالطبع متابعتها ودراستها(٢٦) والتدبر مطلوب من الجميع، والفهم هدف لابد أن يحققه جميع المسلمين، فوحدة الفهم عامل مساعد لتوحيد الأمة، وهو هدف عالمي، يشير إلى عالمية اللغة العربية، يقول إبن تيميه: لم يكن سبيل إلى ضبط الدين، معرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين.(٢٧) وما دام الدين عالَميا فاللسان عالمي أيضاً.

وخلاصة الأمر أن مثل اللغة العربية بالنسبة للقرآن الكريم كمثل وعاء زجاجي يكب فيه ماء، فكان يرى من خلاله وضوحاً وبهجة وجمالاً بحيث لو وضع في إنا غير زجاجي لاتسم بالغموض وعدم الوضوح، والله يقول: ﴿ولقد يسرَّنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾ (٢٨) فبفهم اللغة العربية يزاداد القرآن يسراً، ويزداد وضوحاً لمتدبره، وبغير معرفة اللغة يبقى غامضًا.

ثانيا: التلازم بين الدراسات الإسلامية والقرآن الكريم

قال إبن تيميه: ولهذا كان الذين العلم والإيمان من أبناء فارس، إنما حصل ذلك بمتابعتهم للدين الحنيف بلوازمه من العربية وغيرها.(٢٩) فحصول العلم والإيمان لدى هؤلاء إنما كان بمتابعتهم للدين بلوازمه العربية وغيرها، حيث كانوا يعتمدون الحديث (من يرد اللّه به خيراً يفقهه في الدين) (٣٠) والدراسات الإسلامية بجوانبها المختلفة هي عنوان الفقه في الدين، بل هي فقه القرآن، حيث هو المنطلق الرئيسي للدراسات الإسلامية، وهو المادة الأولى لها، كما أنه معينها الذي لا ينضب، (فلا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسان، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا انقضى عجائبه)(٣١)

فالعلوم الإسلامية ما هي إلا خادمة له، بتبيين مجمله، وتوضيح غامض ومبهم، وشرح معناه، وبيان الأحكام المرادة للمكلف منه، وكيفية الوصول إليها، فهي لا تخرج عن معينه، بل هي من مشكاته المضيئة، وكل منها يناهض لإيضاح القرآن، وإدراك معانيه، والوصول إلى مكنوناته، والغوص لإستخراج لآلئه، وبيان غاياته وآهدافه. فأصول الفقه مثلاً علم يبحث من خلاله في ألفاظ القرآن والسنة، كأدلة على الأحكام الشرعيه، وكيفية دلالتها على تلك الأحكام، وكيفية التوفيق بين ما ظاهره التعارض بين بعض آياته، والبعض الآخر، او بين بعض آياته وبين بعض الأحاديث، ثم البحث في روحه ومعقوله، للوصول إلى ما لم يرد فيه نص بين حكمه. أما البحث في الفقه هو بحث لمعرفة الأحكام الشرعية المراد من المكلف على ضوء الدليل الشرعي التفصيلي، وأساس ذلك هو القرآن الكريم.

وأما البحث في العقيدة والكلام فهو بحث في الأحكام العقدية الّتي قررها اللّه و أوجب علينا الإيمان بها من خلال كتابه.

كما أن البحث في علوم القرآن بحث فيما يتعلق بالقرآن نزولاً وجمعًا وترتيبًا وتلاوةً وتنزيلاً وغير ذلك مما يبحث فيه في هذا العلم.

والتفسير يتعلق بمعاني القرآن الكريم، وفهم آياته، وإيضاح ما يتطلبه العمل بها، (فمن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) (٣٢) ناهيك عن السنة وعلومها فإن البحث فيها لا يخرج عن البحث في القرآن الكريم، إذ السنة مبينة وشارحة له، قال تعالىٰ: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للنّاس ما نزّل إليهم﴾. (٣٣) ولا تعدو السنة أن تكون متضمنة في آياته واحدة من بحره الزاخر وهي قوله تعالىٰ: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.(٣٤)

وعلوم السنة المتكاثرة من علم مصطلح الحديث إلى علم الرجال إلى علم الجرح والتعديل إلى غير ذلك مما يبحث تحت علوم السنة، فهو وسائل للوصول إلى معرفة صحيح السنة من سقيمها، وما كان منها حديثًا عن النبي ﷺ أو لم يكن. فالقرآن الكريم هو المصدر الأصلي للشريعة، وهو المادة الأولى والأساس للدراسات الإسلامية، وما العلوم الإسلامية إلا خادمة للقرآن الكريم قال الشاطبي: إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه. وهذا لا يحتاج إلى تقرير واستدلال، لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك، لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها. أن يتخذه سميرًا وأنيسا، ويجعله جليسه على مرّ الأيام والليالى، نظرًا وعملاً، لا اقتصارًا على أحدهما. (٣٥)

ثالثاً: التلازم بين اللغة العربية والدراسات الإسلامية

فيما سبق تبين لنا مدى التلازم بين اللغة العربية والقرآن الكريم وأن مثلها كمثل الروح والجسد، وعرفنا أنه لا انفكاك بين قرآنية القرآن وعربيته وكانت العربية شعار الإسلام وأهله، الذي قرره ابن تيميه في أكثر من موطن.(٣٦)

واتضح لنا أيضًا مدى التلازم بين القرآن الكريم من جانب، والدراسات الإسلامية من جانب آخر، فكانت النتيجة الّتي تثبت أن العلوم الإسلامية، ما هي إلا خادمة للقرآن الكريم.

وبناءً عليه، يتضح لنا أن التلازم مادام فرضًا مقرراً بين القرآن واللغة العربية، وبين القرآن والدراسات الإسلامية، فالنتيجة الحتمية هي: أن التلازم بين اللغة العربية والدراسات الإسلامية أمر مقرر أيضًا.

وهو ما يعنيه قول عمر رضي الله عنه حين كتب إلى أبى موسى الأشعرى: أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي، وفي حديث عنه رضى اللّه عنه ((تعلموا العربية فإنها من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم)) قال ابن تيميه على هذين الحديثين: وهذا الذي أمر به عمر رضى الله عنه، من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه، لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله (٣٧) ومنه ما قرره سابقاً من أن الذين تناولوا العلم من العجم من أبناء فارس إنما حصل ذلك بمتابعتهم للدين الحنيف بلوازمه من العربية وغيرها.(٣٨)

وليس أدل على ذلك من كلمة الشاطبي رحمهُ اللّه حين قال: إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية. (٣٩)

أما إبن خلدون فقد صرح بذلك بقوله: الفصل السادس والثلاثون في علوم اللسان العربي، أركانه أربعة، وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لم أراد علم الشريعة (٤٠) والزركشي يطلب التعمق في ذلك بقوله: ولا يكفى اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا، وهو يعلم أحد المعنيين.(٤١)

وعليه فإننا نجد اتفاق علماء الأصول على ضرورة أن يكون المجتهد عالما بلغة العرب، حتى يصل إلى درجة الاجتهاد فيها، بحيث يضاهى في فهمها العربي، وهو شأن علماء التفسير، وأي علم من علوم الدراسات الإسلامية.

وعلمنا فيما سبق ضرورة اللغة العربية لأهل الشريعة، وتلازمها مع الدراسات الإسلامية، وقد علل الشافعي ذلك بقوله: وذلك أن اللسان الذي اختاره الله عزوجل لسان العرب، فأنزل به كتابه العزيز، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمدﷺ (٤٢) وكان حملة هذه الشريعة، والكاتبون فيها في العصور الأولى من العجم.

قال إبن خلدون : من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية، أكثرهم العجم (٤٣) لكن كيف وصل أولئك لما وصلوا إليه؟ نحاول فيما يلى أن نوضح منهج علماء المسلمين الأعاجم (غير العرب) الذي أدى إلى الوصول إلى المعارف الإسلامية المختلفة منها:

❶ المنهج الذي أدى بهم إلى تلك النتيجة

أ. علمهم بوجوب تعلم اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم، ولغة النبي ﷺ ولغة السابقين لهم بإحسان.

ب- العمل بقوله تعالىٰ: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (٤٤) فعلموا أن خيار اللسان العربي هو خيار الله، وليس بعد ذلك من خيرة.

ج- متابعة الدين الحنيف بلوازمه العربي وغيرها تطبيقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾(٤٦) فكان الاتباع مطلوباً في كل شيء، ومنها اللغة العربية.

د- النظر إلى حديث رسول الله ﷺ ((المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) (٤٧) وفي الأخذ باللسان العربي دلالة على القوة للوصول إلى المعارف الإسلامية المختلفة.

ه- العصبية للغة العربية، والافتخار بها، باعتبار لغة يرتبط من خلالها العبد بالله عزوجل، وذلك ما عبر عنه الزمخشرى بقوله: الله أحمد جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز.(٤٨)

والزمخشرى عالم من علماء العجم، حيث ولد في زمخشر من قرى خوارزم، وكان إماماً فى التفيسر، والبلاغة، والأدب، والإعراب، والنحو والشعر، وكتبه كثيرة تدل على ذلك. (٤٩)

و- معرفتهم أن الله يخاطبهم بقوله:﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾(٥٠) فعلموا عدم إمكانية الاستجابة لهذا الخطاب الرباني إلا بمعرفة اللغة العربية معرفة دقيقة، حتى يتسنى لهم التدبر الذي هو الفهم العميق لخطاب الله. إلى غير ذلك من الضوابط ألّتي كانت عاملاً مساعدًا، بل و دافعًا لأولئك للوصول إلى ما وصلوا إليه.

❷ المعارف الإسلامية المختلفة التي خاضوا فيها:

تقرر لدينا أنفًا أن الأعاجم حملة العلم في الملة الإسلامية، فما هي المعارف والعلوم التي خاضوا فيها؟

يقول إبن خلدون: فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، أحتيج إلى وضع التفاسير القرآنية، وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم ..... وذكر ما جدت الحاجة إليه من العلوم والقوانين، وخلص إلى النتائج التالية: فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمربى، ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم، وكذلك حملة الحديث الذين حفظه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم، أو مستعجمون باللغة والمربى، وكان علماء أصول الفقه عجماً، كما يعرف وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين، ولم يقم بالعلم وتدوينه إلا الأعاجم، كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين، ولم يقم بالعلم وتدوينه الإ الأعاجم، وقال: وأما العلوم العقلية، فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم، ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم، وتركها العرب. (٥١)

ولم يقتصر الأمر على ما ذكره إبن خلدون فقد خاض علماء العجم في علوم أخرى كالفقه مثلاً وعلم اللغة الأخرى من بيان، وأدب وفقه لغة وغير ذلك مما يعلم من خلال تراجم العلماء يضيق المقام عن الاسترسال معها.

❸ نماذج من علماء العجم

وفيما يتعلق بأسماء علماء الأعاجم الذين خاضوا في نشر المعارف الإسلامية، يقول الثعالبي: من أحب الله تعالىٰ أحب رسوله محمدًا ﷺ ومن أحب الرسول

العربي، أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية آلتي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها.(٥٢)

كلمة تشعر بالإرتباط بالله، والحب لرسول الله ﷺ، والعمل على فهم كتاب الله وهذا ما كان عليه العلماء المسلمون عجما وغير عجم، والثعالبي من علماء العربية الأعاجم، يخاطب بهذا الكلام بنى جنسه، ويحثهم على الارتباط بالله ورسوله وكتابه، من خلال هذه اللغة العظيمة. وإليك نماذج محددة من العلماء الأعاجم، بيانا لبعض ما قدموه خدمة لهذا الدين باللغة آلتي جاء بها.

① **سيبويه**: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز من بلاد فارس، صنف كتابه المسمى (كتاب سيبويه) في النحو، توفى عام ١٨٠هـ عن اثنين وثلاثين عامًا. (٥٣)

② **الجرجاني**: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبوبكر ، واضع أصول البلاغة من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان)، له مصنفات كثيرة ، عدمنها صاحب الأعلام تسع مصنفات، كلها في البلاغة والنحو وإعجاز القرآن، وتوفى عام ٤٧١هـ (٥٤)

③ **السرخسي**: محمد بن أحمد بن سهل أبو بكر ، شمس الأئمة، قاض من كبار الحنفية، مجتهد من أهل سرخس في (خراسان)، له كتب متعددة، أهمّها كتابه المبسوط في الفقه والتشريع ثلاثون جزءآ، أملاه وهو سجين في الجب في أوزجند بفرغانة. وسبب سجنه كلمة نصح بها خاقانة. توفي عام ٤٧٣هـ (٥٥)

④ **الغزالي**: محمد بن محمد الطوسى، أبو حامد، حجة الإسلام، ولد وتوفى في الطابوران، قصبة طوس بخراسان، له مصنفات كثيرة جدا، تجاوزت المائتى مصنف، في شتى أنواع العلوم، توفي عام ٥٠٥هـ عن خمس و خمسين عامًا.(٥٦)

⑤ **فخر الدين البازي**: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين أبو عبد الله، الإمام المفسر أو حد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، ولد في أترى، من بلاد ما وراء النهر، وتوفي في هرلة، وإن كان قرشي النسب، كان يحسن الفارسية، له مصنفات كثيرة عدّ منها صاحب الأعلام أربعة وثلاثين كتابًا، وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظا بارعًا باللغتين. (٥٧)

⑥ **عضد الدين الإيجى** : عبد الرحمن بن أحمد عبد الغفار، أبو الفضل، عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل إيج بفارس، ولى القضاء، وأنجب تلاميذ عظاماً. له مصنفات عدة في علم الكلام والوضع. والأصول والعربية، ذكر منها صاحب الأعلام تسعًا، مات مسجونا بقلعة كرمان عام ستة و خمسين و سبعمائة. (٥٨)

⑦ **السعد التفتازانى** : مسعود بن عمر بن عبد الله التفتاز اني سعد الدين، من أئمة العربية والبيان والمنطق، والكلام وغيرها، ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) من تلاميذ العضد الإيجي، لم تذكر التراجم أنه دخل العالم العربي في يوم من الأيام، وهو قمة علماء العربية حتى إنه ألف كتابه شرح التصريف العزى في الصرف وعمره ست عشرة سنة، توفي عام٧٩٣هـ(٥٩)

وخلاصة الرأي حول هذه المناذ، من العلماء أن الله القائل ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (٦٠)

يرينا أنه قادر على حفظه، بأية وسيلة، ولاتعجزهُ الوسائل، فهيأ له رجالاً لغتهم غير لغة القرآن، ينهجون نهج العملاء الأبرار، تدبرًا لآيات الله، ومعرفة لدقاء قها وأسرارها، وتحديداً لقوانين ألفاظها، شكلاً و مضموناً بياناً وإعجازا. وبحفظ القرآن الكريم حفظت اللغة، إذ ثبوت الملزوم يعني ثبوت اللازم، والعربية لازم من لوازم حفظ القرآن الكريم، كما أنه يعطينا إشارة إلى أنه كما قدر أولاً على ذلك، فإن قدرته لا تعجز عن إعادة التاريخ نفسه من أبناء الأعاجم، إذا وجدت لديهم النية الطيبة، والعزيمة الصادقة، فالأرحام هي الأرحام، والرجال هم الرجال، ولا يختلف إلا النوايا والعزائم، فإذا عزمت فتوكل على الله، وصدق رسول الله ﷺ ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله))(٦١)

أتيت القبور أداوى بها
قساوة قلبي ألتي أجدُ
وقمتُ اسائلُ عَن أهلها
وَهَيهِات لاخبر يُوجد
رأيتُ مصارعَهم عبر
تُذِيبُ حشاشة من يَشهدُ
اقاموا قليلاً وقَدُ رحلَوا
وغابُوا وبالعَودُ ما وعدُوا

(الاديب الطيّب بن مسعود)

الهوامش

١. الزمر: ٢٨

٢. ص: ٢٩

٣. ابن كثير، فضائل القرآن، ط، دار الأندلس، ص ١٠.١١، قال ابن كثير، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه، ثم قال: وهو كلام حسن صحيح.

٤. الشعراء: ١٩٢.١٩٥

٥. خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ص٨٢

٦. ابن تيميه، مقدمة في أصول التفسير،تحقيق محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي ، ص ٤٣

٧. عبد الله تهمين، أهمية اللغة العربية في الدراسات الإسلامية، ورقة عمل مقدمة إلى ندوة اللغة العربية، بالأكاديمية الإسلامية، بجامعة ملايا في نوفمبر ١٩٨٦. وقد نشرت الورقة في مجلة الدراسات العربية، كوالالمبور، عدد ٢، عام ١٩٩١م انظر ص ٤٣ من المجلة المذكورة.

٨. د/ صبحي الصالح، معالم الشريعة الإسلامية، دارالعلم للملايين، ص ٨٦.٨٧

٩. البازي، التفسير الكبير، ج١،ص٢١٧ط دارالفكر.

١٠. د/ الصالح، معالم الشريعة، ص٨٧

١١. الزركشى، البرهان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج٢،ص١٦٥.

١٢. خالد العك، أصول التفسير وقواعده، دارالنفائس، ص ٨٣.

١٣. محمود محمد نصار، مقدمة تحقيق مقدمه في أصول التفسير، ص ١٩

١٤. خالد العك، أصول التفسير وقواعده، ص ٨٠.

١٥. الشاطبى أبو اسحق، الموافقات تعليق الأستاذ السيد محمد الخضر حسين التولس ط دارالفكر، ص ٤٢.

١٦. عبد الله تهمين، أهمية اللغة العربية للدراسات الإسلامية/ مجلة الدراسات العربية ص ٥٩

١٧. ابن تيميه، اقتضاء الصراط المستقيم، ط دارالفكر، ص ٢٠٦.

١٨. نفسه.

١٩. سبا: ٢٨.

٢٠. الحجرات:١٣.

٢١. الزمر: ٢٨.

٢٢. د/ الصالح، معالم الشريعة الإسلامية، مرجع سابق ص ٩٠.

٢٣. نفسه ص ٨٥، نقلا عن الدكتوره بنت الشاطئ.

٢٤. د/ عارف أبو تخضيري، أهمية اللغة العربية للأمة الإسلامية، انظر مجلة الدراسات العربية المعهد العالي للدراسات الإسلامية بروناى دارالسلام ج٢، عدد٢، ١٩٩١م، ص٤٣.

٢٥. ص ٢٩، ص٢٩٠.

٢٦. د/ عارف أبو تخضيري، مجلة الدراسات العربية مرجع سابق ص ٤٩.

٢٧. ابن تيميه، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٦٢.

٢٩. القمر: ٧٧.

٣٠. ابن تيميه اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٦٢.

٣١. انظر هامش رقم ٣.

٣٢. انظر: هامش رقم ٣.

٣٣. النحل: ٤٤.

٣٤. الحشر: ٧، وانظر الشنقيطى، أضواء البيان، دارالكتب العلمية، بيروت، ج، ص ٦

٣٥. الشاطبي، الموافقات، ج٣، ص٢٠٠.

٣٦. ابن تيميه، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٠٣، ٢٠٦

٣٧. نفسه ص ٢٠٧.

٣٨. نفسه ص ١٦٢، انظر هامش رقم ٣٧.

٣٩. الشاطبى، الموافقات، ج٢، ص ٣٧.

٤٠. ابن خلدون، المقدمة، ط، دارالفكر ص ٥٤٥.

٤١. الزركشى، البرهان، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية/ صيدا، بيروت، ج٢، ص ١٦٥.

٤٢. ابن تيميه، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٠٤.

٤٣. ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٣.

٤٤. الأحزاب: ٣٦.

٤٥. ابن تيميه، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٦٢.

٤٦. آل عمران : ٣١.

٤٧. رواه مسلم فى القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز..... حديث رقم ٢٦٦٤ الكتب الستة وشرحها، دار الدعوة، ج٦، ص ٢٠٥.

٤٨. الدكتور، صبحي الصالح، معالم الشريعة، ص ١١٠، نقلا عن مقدمة كتاب المفصل للزمخشرى.

٤٩. الزركلى، الأعلام، ط دار العلم للملايين، ج٧، ص ١٧٨

٥٠. ص : ٢٩.

٥١. ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٣-٥٤٥.

٥٢. الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد ، فقه اللغة وسر العربية، ط دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، ص ٩.

٥٣. الزركلي، الأعلام ج٥، ص ٨١.

٥٤. نفسه، ج٤، ص٤٨.

٥٥. نفسه ج٥، ص٣١٥.

٥٦. نفسه ج٧، ص٢٢.

٥٧. نفسه، ج٦، ص ٣١٣.

٥٨. نفسه، ج٣، ص ٢٩٥.

٥٩. نفسه، ج٧، ص ٢١٩.

٦٠. الحجر، ٩.

٦١. كنز العمال حديث رقم ٢٨٩١٨، قال الخطيب: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، وقيل له: كأنه كلام موضوع قال: لا، هو صحيح سمعته من غير واحد.